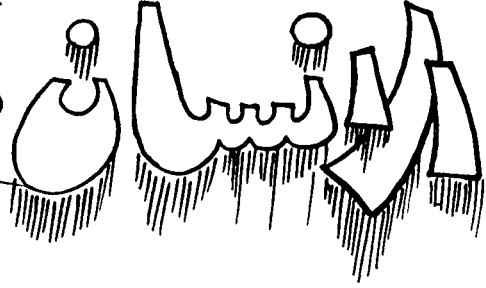


# العجبة عن الحقيقة

بقلم الدكتور رولوهاي - ترجمة مهدي بشاي



وعلى هذا الاعتبار الجديد يتحول هدف العلاج النفسي من مجرد تبصر للمريض بخبراته الدفينة التي جبلت سلوكه الشاذ كما تقول نظرية التحليل النفسي ، الى تقبل عواقب هذه البصيرة وتحمل مسؤولية التصرف ازاءها . وبذلك يكون تعريف العصائبي هو ذلك الفرد الذي تم تصرفاته عن رغبة شعورية او لا شعورية للهروب من الحرية والمسؤولية . فالشخص المريض بالسواس والحصان مثلا يقوم على اداء اعمال تسلطية قهرية لا يقوى على مقاومتها ، ومصدر هذا الضيق هو الخوف من عواقب سعة الحيلة وحرية الفعل . واكثر المرضى العصائبيين يتسمون بهذا الضيق الذي يشل كفاءتهم ويحد من قدراتهم العقلية حتى انهم يخفقون في ابسط اختبارات الذكاء التي تتميز بالمقدرة على التصرف في مواقف اجتماعية معينة او تمييز بالسرعة .

ويوضح « ماي » هذا التطور الجديد في العلاج النفسي الذي يسميه البعض « التحليل الوجودي » بدلا من « التحليل النفسي » بالعودة الى تحليل الاساطير الاغريقية القديمة . وتفسيره لسرحية « اوديب ملكا » التي كتبها سوفوكليس مثلا يختلف عن تفسير فرويد .

والاسطورة التي مسرحها سوفوكليس بعنوان « اوديب ملكا » معروفة ، وهي تلخص في ان « اوديب » قتل ابيه الملك « لابوس » بطريق المصادفة ، وتزوج من امه « جوكاستا » التي جلست معه على عرش طيبة واصبحت ملكته . وتنجب امه ابنان وابنتان . ولكن المدينة التي ابتليت بوباء فظيع في عهد « اوديب » حملت العرافين على التكهن بان الالهة لن يكفوا غضبهم عن المدينة حتى تنظهر من قاتل « لابوس » . ويقوم « اوديب » بالبحث عن القاتل ، وفي اثناء البحث تنكشف الحقيقة المرة رويدا رويدا ، ويبدو على الملكة « جوكاستا » الغزع والذعر من عواقب البحث فتتوسل الى « اوديب » الا يحفل بشوأة العرافين ، ويبدو هذا الحوار بينهما وهو منقول عن ترجمة الدكتور طه حسين للسرحية .

جوكاستا : اجتهد في ان تنسى هذا الكلام الذي لا يفني . بحق الالهة الا ما تركت هذا البحث ان كنت معنيا بحياتك الخاصة . ان شقائي يكفي . اني اضرع اليك في ان تسمع لي والا تمضي فسي هذا البحث .

اوديب : لا نسبل الى طاعتك . لا بد ان يتبين هذا اللغز . جوكاستا : انا افكر في منفعتك ، وانصح لك في المشورة . اوديب : نعم ، ولكن نصحك هذا يؤذي دائما منذ حين . جوكاستا : ايها الشقي : وددت لو جهلت دائما من تكون . وبسبب البحث حتى يتكشف لاوديب سر مولده ، ويستبين له الامر كله فلا تتحمل « جوكاستا » عواقب المعرفة وتقتل نفسها اما « اوديب » فيفقا عينيه حتى لا يرى ما جناه عليه القدر .

اتخذ فرويد من هذه الاسطورة الدليل على صدق فرووضه الاساسية التي تقول بان الوليد يريد ان يتفرد بعبد الام ولكنه يشعر بان اياه يقف حاجلا دون تحقيق ما يريد ، ويتمنى لو

هناك اتجاه جديد في العلاج النفسي يقوم على فكرة كبر كجارذ بان الشعور بالحرية الذاتية يعد اسمى ما في الوجود الانساني . فقد دلت خبرة عدد من المحللين النفسيين امثال رولوهاي مؤلف هذا الكتاب الذي نحن بصدد مراجعته . واريك فروم ، وجورج كيللي ، ان مشكلة الانسان الاساسية هي الجبن عن مواصلة الواقف والهروب من مسؤولية الحرية . ولا شك ان ادماج فكرة حرية الفرد في منهج العلاج النفسي يشكل اتجاها جديدا يختلف عن ذلك الذي سار عليه علماء التحليل النفسي من اتباع فرويد . فقد كانت فكرة التحليل النفسي عن الانسان تقوم على التسليم بمبدأ الجبرية وحتمية السلوك في حين ان هذا الاتجاه الجديد يرى ان الانسان حر ومسئول عن تصرفاته وان المرض النفسي هو نتيجة التنصل من المسؤولية والصافها بالآخرين او بالمجتمع .

يرى اصحاب هذا الاتجاه ان نظرية التحليل النفسي حطت من اهمية « الانا » ، ولم تعترف بحريتها في التصرف ، فحملت « الانا » ضعيفة كالمفضل الذي يحاول ان يمسك بزمام نور هائج ( الفرائز ) ويحاول عبثا ان يحد من تهوره . وعلى هذا الاساس رسمت صورة للانسان تسودها ظلال التشاؤم وتندم منها حرية البحث والخلق والابداع . فالتحليل النفسي يفرض بان هناك صراعا اذليا بين الانسان والحضارة او المجتمع ، وان هذا الصراع لا بد وان يسفر عن كبت للرغبات الحيوية التي لا تلبث ان تظهر في انماط السلوك العصائية المختلفة كالسواس والحصار والهستيريا . وليس من سبيل امام الانسان للحيلولة دون قيام هذا الصراع الذي يحتمه موقف الطفل في الاسره وموقف الانسان في المجتمع ، وهو لذلك لا يعد مسؤولا عن سلوكه الذي حددته خبرات المهد والطفولة .

بيد ان نبد مسؤولية الانسان على هذا النحو تهزم الاساس المنطقي الذي يقوم عليه علم الاخلاق ، اذ ان الاخلاق تقوم على مبدأ حرية الفعل بأي شكل من الاشكال ، ولهذا كانت نظرية التحليل النفسي منافية لعلم الاجتماع . ولا شك ان دراسة السلوك دراسة علمية تحتم التسليم بنوع من الحتمية ولكن ليس ضروريا ان تكون هذه الحتمية مطلقة على النحو الذي جاءت به نظرية التحليل النفسي او نظرية التشرط Conditioning ولهذا قد يكون الاتجاه الى الجمع بين مبادئ الحتمية والحرية في السلوك الانساني محاولة ناجحة لفهمه على نحو لم تبلغه كل من النظريتين السابقتين اللتين اقتصرتا على دراسة السلوك المرضي وسلوك الحيوان دون التعرض للسلوك السوي .

(1) عنوان الكتاب : « Man's search for himself » وهو للدكتور رولو ماي وقد اقتبسنا منه معظم الخطوط الرئيسية في هذا المقال كما اننا اعتمدنا على كتاب « ماي » الاخير بعنوان Existence في توضيح بعض النقاط الخاصة بالاتجاه الوجودي في التحليل النفسي .

ولو ان الحادث اقتصر على ما سلف ذكره لاكتفينا بالقول ان ذلك السائق مريض في حاجة الى علاج . ولكن الحادث كشف عن مشكلة اجتماعية خطيرة . فما ان ترمى الخبر الى سكان مدينة نيويورك حتى قام عدد كبير منهم باستقبال السائق العائد استقبالا ابطال ، وانتهالت الخطابات على شركة السيارات العامة التي كان يعمل فيها السائق مطالبة بسحب دعوى الاتهام .

ان الناس لم تنظر الى السائق على انه سارق او مريض ، وانما راوا فيه بطلا حقق لهم رغبة دفينه في الانطلاق والتحرر من القيود الصارمة التي فرضها المجتمع . ان كل فرد منهم كان يشعر بالسأم او الضيق الذي عاناه السائق ، ولكن كانت تنقصه الشجاعة التي يتطلبها موقف الحرية الذاتية . وهكذا حقق السائق هذه الحرية ، ولم تجسد الشركة - تحت ضغط الرأي العام - بدا من التنازل عن دعوى الاتهام واعادة السائق الى عمله .

وقد عبر عدد من ادباء الكارثة عن عقم وضيق الانسان الحديث بصورة او اخرى . ولعل تلك القصيدة الشهيرة التي كتبها الشاعر المعاصر ت.س. اليوت بعنوان « الرجال الجوفون » «The Hollow Men» تعبر تعبيرا صادقا قويا عن شعور رجل القرن العشرين بضعفه وعقم حفارته:

نحن الرجال الجوفون  
نحن الرجال المحشونون

يستند بعضنا الى بعض وقد حشيت رؤوسنا بالهشيم . فواسفاه!  
كلما همسنا خرجت اصواتنا الجافة هادئة خالية من كل معنى  
كانها صوت الريح على الحشائش اليابسة  
او ديب اقدام الجرذان وهي تمشي على الزجاج المكسور في  
مخابئ بيوتنا .

نحن اشكال بلا قوالب ، نحن للال بلا الوان  
نحن قوى مشلولة ، نحن اشارات بلا حركة (٢)

ان مصير الانسان المحزن الذي عبرت عنه هذه الابيات لم يكن وليد ساعته انما جاء في اعقاب تطورات وانقلابات فكرية واقتصادية لا يمكن اغفالها لانها تشكل جذور الازمة ، ازمة الحرية الانسانية .

## جذور الازمة

تمتد جذور الازمة التي تكشف لنا اعراضها في القلق والوحدة والفراغ بضعة قرون الى الوراء . ففي عهد الاصلاح الديني حتى القرن السابع عشر كان يظن ان الانسان هو مركز الكون . ولم يتم هذا الايمان على اساس العقل وانما قام على اساس الوحي . لقد فسر رجال الكنيسة حقيقة الانسان بانها سامية ازلية لانها جاءت على صورة الله . لقد خص الله الانسان باسمى مرتبة في الوجود بعد ان خلقه على صورته وجعله قيما على الكون كله ، ولذلك كان عليه ان يسعى لتحقيق البساديء الاخلاقية التي نصت عليها الكنيسة . وكان المثل الاعلى للانسان هو ذلك الرجل الذي نظم حياته ووقفها لتحقيق غاية هامة وهي خدمة الله . والسبيل الى ذلك يكون بتطهير النفس من الخبثية واتمام الواجب بانضباط دقيق وضمير واع بالمسؤولية . وصف الشاعر ملتون هذا الرجل فقال عنه :

« انه لم يرتكب انما في شبابه او في رجولته

وكل مراده السيطرة على الذات وسيادة الفكر والقول والعمل

ولذا تميزت طلعته بالوقار والاحترام

واتسمت حياته بالانتظام والامتثال .»

ولعل هذا المثل الاعلى يحمل الناس على الايمان بقيم تطهير النفس والسمو والتضحية وسيادة الفكر والقول والعمل وما اليها . ولكن التطور الفكري الذي جاء في اعقاب الكشوف العلمية الهائلة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حطم عددا هائلا من المعتقدات القديمة بشان

(٢) من ترجمة الدكتور لويس عوض في كتابه « في الادب الانجليزي الحديث » ص ٣١٦

استطاع ان يتخلص منه لينفرد بحب امه . ولما كان عاجزا عن تحقيق ما يريد فلا مفر من كبت رغباته لاشموريا لتصبح بعد ذلك قوة حيوية خطيرة وقد تدفع به الى السلوك الشاذ . ولهذا كانت مهمة المالح للنفس تنحصر في حمل المريض على استعادة الذكريات الجنسية المكبوتة . اما « رولو ماي » فيرى ان هذا التفسير لعقدة اوديب يغفل امر هاما هو ان مشكلة « اوديب » لم تكن معرفة حقيقة مولده ، وانما كانت المشكلة هي وجوده بعد حصوله على المعرفة . « واوديب » لذلك لم يخض نفسه بل بل فقا عينيه مما يدل على ان المشكلة الرئيسية ليست البحث عن الحقيقية ( الجنس ) وانما كيف يشكل الانسان وجوده بين هذه المعرفة - وهل سيقبل مسئولية وجوده ام لا .

## مأساة الانسان المعاصر

ومأساة الانسان المعاصر هي عين مأساة « اوديب » . انه قد حقق المعرفة في كل ميدان من ميادين الحياة ، ولكنه اصبح اكثر جهلا بحقيقة نفسه مما كان في العصور المظلمة . لقد كان من آثار التقدم العلمي الذي احرزته القرن العشرين ان اصبح المجتمع عملاقا في حين ارتد الانسان الى قزم ضعيف . فوسو مضطر الى التنازل عن كثير من الحريات الشخصية في سبيل تحقيق الامن ولقمة العيش . فالاختبارات تحدد له ميوله وقدراته ، ودور الصناعة تحدد له مهنته وكسبه ، والمجتمع يحدد له سكنه وطريقة حياته ومستقبله . ان المجتمع الحديث كله فيود صارمه لافلاك منها بحيث اصبحت قدرة الانسان على الخلق والابداع مرهونة بالهيئة او السلطة التي تشرف عليه في حين ان الخلق والابداع يابى السيطرة والالتزام . فالحرية الذاتية ائمن ما في الوجود الانساني ، والانسان الذي يفضل التبعية على الحرية يبيع نفسه ويعتذر عن وجوده كإنسان اذ انه يعترف بانه وحده ليس بموجود ، وانما يتعلق وجوده بالسلطة او الهيئة التي تمنحه قدرا معلوما من الحرية .

واخيرا تمخض هذا الموقف المهن للحرية الانسانية في بعض الاعراض التي يشكو منها المجتمع المعاصر : كالشعور بالوحدة والقلق والفراغ . فعلى الرغم من انتشار وسائل الاتصال كالتلفزيون والسينما والمسرح الا ان انسان القرن العشرين يشعر بوحدة قاتلة في قرارة نفسه . ومن العجيب حقا ان يزداد هذا الشعور بين الناس كلما ازداد عددهم . فكثر المدن ازدحاما بالسكان مثل نيويورك او شيكاغو اعظمها اثرا في الشعور بالوحدة والفراغ . ومما يدل على افتقار هذه المدن الصاخبة الى الحياة الطبيعية رواج اندية التعارف والزواج ، وكان الفرد الذي يعيش في هذه المدن لا يستطيع ان يحصل على صديق او صديقة الا بالاعتماد على سلطة خارجية تهء له السبيل ليمارس حقوقه الطبيعية كإنسان .

ويبدو قلق الانسان المعاصر على حريته المفقودة في الشعور بالسأم والفراغ والاقدام على افعال تنسم بالشذوذ والغرابية محسب ما جاء عن ذلك السائق الذي نشرت قصته المصحف الامريكية منذ عهد قريب ولعله يمثل مظهرا من مظاهر الازمة التي يعانها الانسان الذي سجنته العصر الالي :

وتتلخص القصة في ان سائقا لاحدى السيارات العمومية استقرت سيارته العامة متابعا سيره في الطريق المرسوم له بين مركز المدينة واحدى ضواحيها . ولكنه تلت حوله فوجد سيارته خالية تماما من الركاب . واتنابه شعور بالرغبة في الانطلاق بالسيارة خارج الطريق الذي سار عليه طيلة الايام التي امضاه بالشركة . وسرعان ما سيطر عليه هذا الشعور فعلا فانطلق بالسيارة العامة صوب الجنوب واستمر في سفره حتى بلغ شواطئ فلوريدا في اقصى جنوب الولايات المتحدة . وهناك امضى يوما سعيدا في حياته قبل ان يلتقي البوليس القبض عليه ويوجه له تهمة سرقة سيارة عامة وتبديد اموال الشركة .

دهاء ومكر ورياء . وعبثا يحاول ان ينقذ أسرته من الجوع والفوضى  
خصوصا بعد ان فصلته الشركة من العمل فلا يجد مفرًا من الانتحار .

## الحرية والشعور بالذات

انتهت فكرة التقدم التي عقد عليها المفكرون الامال باخلاف الظنون ،  
وتبعها الشك في مقدرة العقل على تحقيق التقدم واصبح المجال مفتوحا  
امام النزعات المتمردة على العقل سواء اكان ذلك في الفلسفة ام في  
علم النفس الذي لا يمكن ان يكون بمنأى عن الاتجاهات الفلسفية . وكان  
من اهم صور التمرد ما جاءت به الفلسفة الوجودية وفلسفة الظواهر .  
فالفلسفة الوجودية تقوم على اساس ان ثمة جوانب من الواقع الانساني  
لا تتكشف من خلال النظرة العقلية . وفلسفة الظواهر Phenomenology

او الظاهرية تقوم على منهج ذاتي لا يستند الى نتائج البحوث الموضوعية  
العقلية . وقد اخذ بعض المنظرين في العلاج النفسي امثال رولد ماي  
بعض المبادئ التي قالت بها هاتين الفلسفتين وتلخص في اعتبار الانسان  
لا الحقائق او الموضوع نقطة البدء في فهم السلوك الانساني . فالفلسفة  
الوجودية اكدت ان الانسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع ان يشعر  
بذاته وان الحقيقة لا تتكشف له الا من خلال هذا الشعور الداخلي  
العميق . اما العقل او دراسة الانسان كموضوع فلا يمكن ان يعمل بنسب  
الى الحقيقة اذ ان العقل يقتصر على النظر من الخارج . « وليس امعن  
في التفاصيل من ان احاول البحث عن « الوجود » خارج ذاتي ، لان كل  
ما قد اثر عليه في الخارج لن يكون الا مجرد ظاهر او مظهر بالقياس  
الي . واما اذا حاولت ان انفذ الى اعماق « ذاتي » ، فهناك  
قد يكون في وسعي ان اصل الى الكشف عن « الوجود الحقيقي » .  
ومعنى هذا انني حينما اتقرب في باطن ذاتي ، فاني لابد ان اهبط  
الى ذلك القاع الدفين الذي فيه اجد جذور الوجود العام ! » (٢)

فالحقيقة تتبع من الشعور العميق بالذات ، ولما كانت الذات الانسانية  
لا تمتنع بوجود ثابت تتطابق فيه دائما مع نفسها ، بل نحن في صيرورة  
دائما كان لزاما عليها ان تفصل بحريتها في صميم حياتها ، اي ان الانسان  
لا بد وان يشعر بالقلق بسبب وجوده ككائن يشعر بذاته ، وهذا القلق  
هو الذي يفهم وجهه لوجه امام حريته وامام اختياره الذي لا يستطيع  
احد سواه ان يحققه .

وفي بعض الابحاث النفسية ما يشير الى صدمة هذا التفسير الفلسفي  
لحرية الانسان . فنظرية « كارل روجرز » مثلا تقوم على فكرة اعطاء  
المرضى دورا ايجابيا في علاج نفسه باعتباره وحده - لا المالك كما هو  
الحال في نظرية التحليل النفسي - يستطيع ان ينفذ الى اعماق ذاته  
ليكتشف حقيقة نفسه . وكذلك اظهرت تجارب « دولاو و ميلر » ان  
شخصية المريض العصابي neurotic تتسم عادة بصيق الافق في  
التفكير والشعور بالاسر المحيق بالذات واقتصار السلوك على اتجاهات  
محددة . وكتب « اريك فروم » كلها تدور حول معنى الحرية للفرد وهو  
يقابل بين شخصية المريض وشخصية الهارب من الحرية سواء اكان  
ذلك عن طريق التسلط او السادية او العزلة او الرغبة في التحطيم .  
ونظرية « جورج كيللي » تقوم على محاولة فهم المواقف التي يتملق  
بها المريض والابنية الغرضية Construct systems التي يستجيب  
لها سلوكه ، ونظرية « رانك » تنتقد الاقتصار على تحليل خبرات  
المريض عند علاجه وترى ضرورة الاهتمام بوجهة نظر المريض نحو الحاضر  
والمستقبل . وهناك عدد اخر من المنظرين - بل والادباء - الذين يجمعون  
على ان المشكلة الاساسية في المرض النفسي هي تقلص الذات وشعورها  
بالفضالة والعجز في معترك الحياة .

وتعريف النضج النفسي في كتب علم النفس لا يختلف كثيرا عن

الكون الذي كان ارسطو قد وضع خطوطه الرئيسية . وجاءت كشوف  
نيوتن فلهيت بعدد اخر من المعتقدات ، ثم جاءت ثورة ديكارت الفكرية  
على كل اعتقاد او مبدأ لا يسلم به العقل . وهكذا بدأ العقل يستولي  
على المكانة التي كانت للوحي وبهذا اصبح السبيل مهيئا لسيطرة  
العقل الانساني على كل شيء . وظن المفكرون ان استتباب سلطان  
العقل دليل على اقبال عصر كله سعادة وخير ورخاء تعظم فيه الانسانية  
فيودها وتنطلق في سبيل الحق والخير . وتحامل المفكرون على الدين  
واحواله الى مجرد نظام فلسفي ، وتعرضت النبوءات والمعجزات وفكرة  
التطهير الروحي نفسها الى نقد مدمر . فاعلن نيتشه مثلا ان الله قد  
مات وانه يتعين على الانسان ان ينصب لنفسه قيما جديدة تقوم على  
منطق التطور الذي كشفت عنه نظرية دارون . وكذلك اعلن مفكرون  
اخرين ان تطهير النفس مرادف للماسوشية والمرضى النفسي . ولكن  
تحامل المفكرين على المعتقدات والاديان لم يمنهم من الاعتقاد بان قانون  
التقدم الاجتماعي هو الحقيقة الكبرى . وكان هربرت سبنسر يذهب الى  
ابعد من ذلك ليقول بان قانون التقدم الاجتماعي فرع من فروع التقدم  
الكوني العام الذي يشمل نظام الطبيعة برمته .

واخذت فكرة التقدم بعد ذلك تحتل مقام الافكار الدينية . وفكرة  
التقدم في معناها الواسع تتضمن الاعتقاد بان العالم يتدرج في سبيل  
الكمال تدريجا شاملا ، وينتقل على الدوام من حسن الى احسن . وكانت  
هذه الفكرة مقبولة من الوجة النظرية حينما كان يظن ان الله قد اختص  
الانسان بعنائه . اما وقد ظهرت نظرية التطور وتبين منها ان الانسان  
لا يختلف جوهره عن سائر الحيوانات فان فكرة التقدم تحولت الى عملية  
الية تسفر عنها قوى الطبيعة العمياء . وهكذا اصبح التقدم لا يرتبط  
بالاخلاق لانه يقوم على تنازع البقاء وعلى قوى الطبيعة الخفية التي  
وصفت بانها « حمراء الخلب والناج » .

وتأكدت هذت النتيجة لفكرة التقدم في الميدان الاقتصادي .  
حقيقة ان انجلترا مرت بفترة ازدهار مادي الا ان هذا كان لفترة قصيرة  
حتى نمكنت الدول الاوروبية من اللحاق بانجلترا في المنافسة التجارية  
والصناعية . واخذت هذه الدول بعد ذلك تعتمد على استعمار الدول  
المتخلفة في تصريف الانتاج . وخلفت المنافسة التجارية والصناعية  
مشاكل لم يعرفها الناس من قبل كالبطالة ، وقلة الاجور ، وازدحام المدن  
وانتشار الجرائم ، والاضطرابات والحركات العمالية ، واختتمت هذه  
السلسلة المتلاحقة من المشاكل بحرب مدمرة استخدمت فيها اسلحة  
الهلاك والخراب . وعند ذلك بدأ نفر من المفكرين يتراجع عن حماسه  
لمنطق العقل وفكرة التقدم . فالتقدم البشري لم يعد ممكنا ، والحضارة  
الاوروبية كادت تنهار ، وبدا جليا ان كارثة ما ستتحقق بالناس وتفضي  
على حضارتهم . ولم تقتصر اثار الشعور بوقوع كارثة على طبقة دون  
سواها من طبقات المجتمع ، وانما جاء التصدع ممتدا امتدادا طويلا  
في المجتمع وان تازرت به طبقة بصورة اقوى من غيرها . وعبر الادباء  
عن هذا بانفعالات مختلفة . فمعهم من غمرته موجة التشاؤم فخرج على  
المسيحية وامن بنوع من الجبرية الحزينة التي تصور تهاة الحياة  
مثل توماس هاردي ، ومنهم من كفر بالعلم والثقافة وحذر الانسانية من  
شرهما مثل د. ه. لورنس ، ومنهم من حل في ياس مبيت كاد يفقده الثقة  
بالحياة لولا اهتمامه الى الفلسفة والدين كالشاعر المعاصر ت. س. اليوت .

وقد كشفت مسرحية الكاتب الاميركي ارثر ميللر « موت بائع متجول »  
عن مظهر من مظاهر الانهيار في الحضارة ، فصورت فطاما في المجتمع  
وقد ضاقت بابنائها ، واخذت منه القيم الانسانية التي آمن بها الاسلاف  
من قبل كالاخاء والمحبة ورعاية الجار . فبطل المسرحية بائع متجول  
مخضرم لانه عاش في عشرين متلاحقين تبدلت فيهما القيم الانسانية من  
مبدأ : « عامل جارك كما تحب لنفسك » الى مبدأ : « عامل جارك كما  
لو كان عدوك لان نجاحه يعني سقوطك » . وهو لا يستطيع ان يوفق بين  
هذين المبدأين المتناقضين ويعجز عن التكيف لمطالب المجتمع الالي مسن

(٢) زكريا ابراهيم : « الفلسفة الوجودية » . دار المعارف ١٩٥٦ ص ٣٦

# معاناة...

... وابتعد مما وعته الاساطير اهواك

احزن مما يبالي القمر

اعيش على الوهم عمري ..

على ما يلون لي من صور

وتعلم عيناك ، ان السفينة تنظر

في غرفة اليوم دعوة مرفئها المنتظر

وان ليالي في سرحة الموج احلام اشرة

ضارعات الصواري ..

تبوح حزن المطر

وتعلم عيناك ان الجراح بصدري

وفوق جيبني كشار

واني بحار حزن يغرب بين البحار

واني في صمت رحلتي الشارده

احن لعينيك ، للنظرة الطفلة الواعده

يمينا ، وعمر الليالي حنين

وقلب الليالي ضنين ،

يمينا بعينيك اني اكابر ، تذبحني اللهفة المارده

ويوما لمحتك عبر سراي

وعشت بعينيك عمر عذاب ، يعني عذابي

شعرت بانك يا ما تعانين من وقع لحني

وانك مثلي - اثيرة عيني -

تطوف بجفنيك الوان حزني

ويوما شعرت - وباما شعرت ، باني ..

وابعد مما وعته الاساطير اهواك

ابتعد مما يقولون عنك وعني

فايز ملص

دمشق

ذلك الذي اشارت اليه انفسه الوجودية من كونه مرادفا للشعور بالحرة وتقبل المسؤولية . فالنضج النفسي لا يتم الا بعد ان ينفذ الفرد الى اعمال ذاته بخبراته وافعاله ويكشف حقيقة نفسه كفرد مميز اوحد يختلف عن كل مصدر تعلم في كنفه . وليس من شك ان هذا الشعور بالفرد والتمايز عن الغير من شأنه ان يحمل الفرد على الشعور بالقلق والخوف من العدم ، ولكن هذا هو الباعث على الفعل والوجود . فكما ان « اوريستز » في الاسطورة الاغريقية لم يحقق وجوده كإنسان الا بعد ان استقل عن سيطرة امه « كليتمسترا » ، ولم تحكم له الالهة بالعبث الا بعد ان عذبه القلق بسبب ما اقدم عليه من فعل ، وكذلك مصير كل انسان . انه لن يحقق وجوده وحريته الا حينما يشعر بانه كائن منفرد وان ذاته ليس لها نظير ، وان عليه وحده تقع مسؤولية وجوده .

وكما تصور اسطورة « اوريستز » ارتباط القلق بالاستقلال وملازمته للحرة ، تكشف اسطورة الخلق عن صدق الدليل على ترادف المسؤولية بالحرة . ان ادم وحواء في اسطورة الخلق لم يدخلوا في اعتبار التاريخ ولم يحققا وجودهما الا بعد قبولهما للمسؤولية : « بقرق جيبنيك تاكل خبزك » . كانت هذه المسؤولية هي النتيجة الحتمية لممارسة الحرة في عصيان يهوه . وهكذا سقطا وطردا من الجنة ليكتب لهما تاريخ . فالاسطورة في الواقع لا تمثل سقوط الانسان وانما ارتقاؤه واستقلاله . فالسقوط هنا - على حد تعبير كير كجارد - سقوط الى اعلى .

ولما كان البحث عن حقيقة النفس يكشف عن ذات فريدة في حالة صيرورة دائمة فان تطورها بالخلق والابتكار يصبح ممكنا . كل انسان يستطيع ان يصبح كبروميتيوس الذي سرق النار المقدسة وتقبل في سبيل ذلك عذاب الصلب على جبال القوقاز حيث كانت الطيور الجارحة تنفذ على كبده . فالنار ترمز الى الخلق لانها الوسيلة التي يسرت للانسان التفوق في العلوم والفنون . وكل ذات تقدم على الخلق على هذا النحو تتعالى على نفسها وتصبح خالدة في الزمن كما يتبين من تحليل الشيطان زمتا طويلا ، وانفق ما يستطيع لاغوائه ، ولكنه لم يظفر بنفس شخصية « فاوست » في المسرحية التي كتبها « جوتة » . لقد حاوره فاوست لانه مازال على كلفه باللذة طامحا الى شيء عجز الشيطان عن ان يوصله اليه ، وذلك هو مقدرة النفس على الخلق والابتكار .

يستطيع الانسان ان يحقق وجوده بنفسه ، وان يجعل لحياته اهداف الخلق والابداع ، وان يلصق بعامله معنى ومغزى . ان يستطيع ان يختار هذا او يحجم عنه مفضلا الاحتماء بالمجموع ليحقق له الامن والراحة او الكسب ، ولكن مصيره حينذاك يكون كمن كسب العالم كله وخسر نفسه .

والعلاج النفسي لا يمكن ان يتجاهل هذه المفاهيم الجديدة التي خلقت منها نظريات التحليل النفسي والتشريط ، وهي - عند كير كجارد على الاقل - تنطوي على قدر كبير من التفاؤل بمستقبل الانسان كما تفسر الاسباب التي حملت انسان القرن العشرين على فقد الثقة بالقيم التي خلفتها الفلسفة المثالية والفلسفة العقلية فاحس بالصياغ والفراغ والقلق . ان التيار الوجودي في العلاج النفسي يعملنا على اعتبار وجهة نظر المريض وعالته وخبرته الذاتية اساسا للبحث عن حقيقة النفس، وان ذات الانسان لا ينسب فهمها صحيحا الا من الداخل. من الفعل والاختيار والاستقلال. وما القلق او التوتر والمدوان الا مظاهر عادية تشكل الواجهة الخلفية لحرية الفرد ووجوده . ولذلك لا يمكن ان يقتصر العلاج النفسي على « تحليل » او « تكثيف » هذه المظاهر او التخلص منها لانها اساس الوجود الانساني . ولكن مازال هذا الاتجاه الجديد بحاجة الى منهج علاجي يقوم بترجمة المفاهيم الوجودية الى خطة عملية يمكن للمعالج النفسي ان يستخدمها ويتحقق عن طريقها من صدق اثر هذه المفاهيم في تطور العلاج النفسي وتقدمه .